التاريخ فى سير أبطاله

ابراهام لنكولن

هدية الأحراج الى عالم المدنية

للأستاذ محمود الخفيف

يا شباب الوادى ! خذوا معانى العظمة فى نسقها الأعلى من سيرة هذا العصامى العظيم ... ...

— ١٢ —

وحدث أن كان مولد الحزب الجديد فى نفس العام الذى كانت تختار البلاد فيه رئيساً جديداً للولايات ، فكان النشاط السياسى بذلك مضاعفاً ؛ وأحس الناس جميعاً أن مسألة العبيد قد أصبحت القطب الذى يدور عليه هذا النشاط السياسى فألقوا بالهم إليها على نحو لم تسلف بمثله فترة فى تاريخ البلاد

وعرف الحزب الجديد كما أسلفنا باسم الحزب الجمهورى ؛ ولقد أخذ الداعون إلى إنشائه ينشرون الدعوة له فى كل ولاية ؛ وكان أول اجتماع أهلى لهذا الحزب عام ١٨٥٦ فى مدينة فيلادلفيا ؛ أما عن مذهب الحزب فقد اجتمع أيضاً مرة أول الأمر على فكرة نجملها فى العمل على مقاومة انتشار العبيد كما جاء فى اتفاقية مسورى ؛ وكان هؤلاء الأنصار فى الولايات أخلاطاً من الأحزاب الأخرى تراهم وإن اتفقوا على المذهب أو كادوا ، لا يزالون مختلفين فى الوسيلة

ولم تك الينوس تلك الولاية التى ينتمى لنكولن إليها بدعاً من الولايات . ولقد دعا أنصار الحزب الجديد فيها إلى اجتماع تمهيدى يتدارسون فيه الأمر ويحددون الغاية ويسددون الوسيلة ؛ وانعقد هذا الاجتماع فى مدينة ديكاتور وشهده لنكولن فيمن شهده من رجال السياسة المبرزين ؛ وأدلى إليهم بما يرى ، وفطن المجتمعون إلى سياسته التى لن يتحول عنها والتى تتلخص فى أمرين : مقاومة انتشار العبيد والمحافظة على كيان الاتحاد ...

ولكن لنكولن لا يزال من الوجهة الرسمية من رجال حزب الهوجز ، فهو لم يعلن انفصاله عنهم بعد ؛ فلما كان يومئذ فى طواف قضائى وقد دعا أنصار الحزب الجديد فى الينوس إلى مؤتمر عام يعقد فى مدينة بلومنجتن ؛ ووضع صديقه هرندن اسمه فى الداعين إلى المؤتمر دون أن يرجع إليه ؛ فجاءه البرق بموافقته وبذلك أصبح ابراهام عضواً فى الحزب الجديد

واحتشد رجال هذا الحزب فى بلومنجتن لينظروا ماذا يرون ؛ وتطلعت أنظار المؤتمرين إلى لنكولن وفى روع كل منهم أنه رجل الساعة وأنه ابن بجدتها ؛ وبدأ فقال لمن حوله : « دعونا نجعل حجر الزاوية فى بناء حزبنا الجديد إعلان الاستقلال » وهو يريد بإعلان الاستقلال ذلك الحادث التاريخى الذى ظهرت به الولايات المتحدة كأمة مستقلة فى هذا العالم ؛ وكأنه يشير إلى ما يتضمن الاستقلال من معانى الوحدة والأخاء والحرية والمساواة ، تلك المبادئ التى جعلها رجال الثورة شعار ثورتهم ... وأصدر المؤتمرون قرارهم فقالوا : « أجمعنا أمرنا على أننا نعتقد وفق آراء وتجارب جميع رجال السياسة المبرزين من كافة الأحزاب فى السنوات الستين الأولى للحكومة ، أن المؤتمر فى ظل الدستور يملك السلطة التامة ليوقف انتشار العبيد فى الولايات ؛ وأنه كما سيحرص على كافة الحقوق الدستورية لأهل الجنوب ، نعتقد أيضاً أن العدالة والإنسانية ومبادئ الحرية كما نص عليها فى إعلان استقلالنا وفى دستورنا القومى وما نتوخاه لحكومتنا من نقاء ودوام ؛ كل أولئك يستدعى أن يكون تنفيذ السلطة بحيث يمنع انتشار العبيد فى الولايات التى تعد حرة حتى الآن »

وإننا لنرى سياسة لنكولن واضحة تمام الوضوح فى هذا القرار الذى أعلنه المؤتمرون ؛ وفى ذلك الدليل على أنه كان غداة المؤتمر الرجل الذى ينبض بعباداته كل قلب ويتحرك باسمه كل لسان ؛ ونحن إذا نظرنا إلى مبادئ الحزب الوليد فى جميع الولايات نجدها لا تختلف كثيراً عما جاء فى قرار رجال الينوس ، وبعبارة أخرى نجدها لا تختلف كثيراً عما يرى لنكولن ، وفى ذلك دليل آخر على عبقرية الرجل وعلى أصالته ...

ونظر إبراهام إلى المؤتمر فإذا رجاله على اتحادهم فى الغاية ، يختلفون فى الوسيلة التى تتحقق لهم بها تلك الغاية وأذاهم باعتبار ما سلف ، فئات متباينة آراؤها ؛ وإنه ليخشى الخلف فى الوسيلة

إلى ضياع الغاية ، بل إلى طمس سُوى الطريق وركوب الظلام وفى ذلك سوء المنقلب ؛ وإنه ليتحرق شوقاً أن يرى هؤلاء القوم وقد اجتمعت على الوسيلة كلمتهم كما اجتمعت على الغاية ؛ إنهم إذاً لفائزون ، وإن لهم بذلك لبأساً يهون كل أمر عسير ، ثم إنهم لخطب فادح لا يطيقه المتمسكون بالعبيد من أهل الجنوب

وكأنما أحس المجتمعون بما أحس ، وإلا فماذا دعاهم أن يهتفوا به ؟ لقد تجاوبت باسمه جنبات المجتمع ، فراح الرجال يتصايحون لنكولن ... لنكولن ... نريد أن نسمع لنكولن ! وما كان له أن يتخلف وهو الخطيب الذى تهيب به مثل هاتيك المواقف وتواتيه عبقريته كلما أحست نفسه جلال الحادثات ! لذلك ما لبث أن وثب من مكانه ووقف فيهم وقفة الخطيب وهو لا يدرى ماذا يقول . وسكتت الأصوات بعد جلبة ، واستقر الرجال بعد أن كان بعضهم من فرط السرور والحماسة يموج فى بعض ...

وقف الخطيب أول الأمر صامتاً كأنما أغلقت من دونه مسالك القول ؛ والناس ينظرون إلى قوامه السمهرى وقد مال برأسه إلى الخلف وبرز بصدره إلى الأمام ، والتمعت عيناه وتشكلت أساريره فبدت فى مظهر يقصر عن وصفه معنى الجمال . وصفه أحد الحاضرين فقال : « كان في تلك اللحظة أوجه من رأت عيناى أبداً »

وتكلم فاذا المستمعون كأنهم رجل واحد ، لا فرق بينه ولا اختلاف ، وقد سرت إليهم من الخطيب موجة قوية من السحر ! وسرى إليه منهم تيار شديد من الحماسة ؛ وهو يرسل فيهم القول يجمع بين العاطفة تهز المشاعر ، والحجة تبهر العقول ، والأمثلة تبهج النفوس ؛ وكانت تشتد العاطفة حيناً فتفيض عيون ، ويلتمع الدليل آونة فتصفق الأكف وتنطلق بالهتاف الحناجر ، ويروق المثال أو تملح النكتة بين هذا وذاك فتجاجل الأفواه بالضحكات .. والخطيب يلعب بالأفئدة ويستهوى المشاعر ويستمر لايفتر حماسه ، ولا يكل منطقه ، ولا يضعف صوته ، والسامعون ماخوذون عن أنفسهم بما يقول حتى لقد ألقى مندوبو الصحف أقلامهم وأقبلوا بعقولهم وقلوبهم عليه يحرصون ألا تفوتهم كلمة من هذا السحر الحلال ...

ذلك ابن الغاب قاطع الأخشاب ! ذلك هدية الاحراج إلى عالم المدنية ؛ كأنما قد هيأته الأقدار لرسالته فبعثته من موطنه قوياً قوة الطبيعة واضحاً كالشمس لا يحجبها غيم ، ولكن أودعت في نفسه سراً عميقاً تحس لديه بما تحس به إذا وقفت فى مدخل الغابة

أوضح فى خطابه سياسته فلم يترك مجالاً للبس أوشك ؛ وكان إلى التحذير والانذار أقرب منه إلى التفاؤل والتمنى ؛ حذر الناس أن يشتطوا فيؤدى شططهم إلى انسحاب أهل الجنوب من الاتحاد فانه ليحس فى الجو ما يسبق العاصفة ، وأنذرهم أن يتهاونوا أو يتخاذلوا فتذهب ريحهم وتضيع أصواتهم بدداً ؛ وهو فى كل ما يزجى من القول صريح كأعظم ما تكون الصراحة ، واضح كأتم ما يكون الوضوح

تعرض لمسألة كنساس فقال فى قوة اليقين وفى جلال الحق ؛ ستكون كنساس حرة ؛ وأردف فذكر السامعين أن الخروج على اتفاقية مسورى والسماح بانتشار العبيد وراء الحد الفاصل مؤد حتما إلى جعل مسألة العبيد مسألة قومية عامة ، ولذلك فانه للفوز أبداً أو الهزيمة أبداً ، فانه ليشعر بتزايد قوى المتمسكين بمبدأ انتشار العبيد بينما يتراخى الداعون إلى مقاومة تياره . وكان فى خطابه يبدو منه ما يبدو من رجل مقبل على موقف حاسم فى تاريخ حياته ، ففى نبراته رنة الاخلاص ، وفى مقاطعه وابتداءاته لهجة اليقين وبينات الحرص الشديد أن يتدبر كلامه المنصتون ، وعلى وجهه علامات الاهتمام حيناً وأمارات القلق حيناً ومخايل الحذر والخوف واللهفة أحياناً ، وكذلك العظيم إذا تكلم كان كلامه من وجدانه ومن لبه ، وكانت حركاته حركات جوانحه وخفقات قلبه

ولقد تنبأ ذلك الرجل العظيم فذكر للناس أن مسألة العبيد سوف لا تحل حتى تنتهي إلى أزمة تجتاز بفضل إرادة الأمة ، فان تلك الارادة متى أوقظت اجتاحت الصعاب ؛ وكأنه كان يرى ما سيحدث عما قريب فى صورة حرب أهلية ضروس

وانجلت المعركة الانتخابية عن فوز بيوكانون مرشح الحزب الديمقراطى ، ولقد ظهر فيها على منافسيه أحدهما مرشح الحزب الجديد ، والاخر مرشح حزب آخر كان يعرف بالمحايد ، ويضم عدداً كبيراً من الهوجز ، ولكن نجاح الحزب الديمقراطى كان ينطوى على معنى الضعف ، فان ثلث أصواته انضمت إلى الحزب الجديد كما أن هذا الحزب قد نال على حداثته عدداً من الأصوات

بلى فى مقداره عدد أصوات الحزب الفائز ، حتى لقد اعتبر الكثيرون من المفكرين أن الفوز الحقيقى إنما هو للجمهوريين

ولقد انضم إلى هذا الحزب الوليد كثير من أهل الثقافة وأولى الأبصار ، فكان من رجاله فى مجلس الشيوخ نفر من الأماثل الذين أشربت قلوبهم حب بلادهم والدين فطرت نفوسهم على العدالة وجبلت على الرحمة والانسانية ، والذين كانوا يمقتون نظام العبيد من أعماق وجدانهم إذ يرونه نظاماً لا يوائم ماينشدونه لوطنهم من نهوض وقوة ...

وبدرت يومئذ فى البلاد بوادر الطلمة الكبري فلقد تلاحقت الأحداث وجرت الشائعات بالسوء وانبعثت الأحن والحزازات وتنابذ الناس وتباغوا وأصبح بأسهم بينهم شديداً ؛ فما هى إلا رجفة ثم ينفجر البركان ويزلزل البنيان ...

وكانت أولى تلك الأحداث ما كان فى مجلس الشيوخ فلقد كان فى المجلس رجل يدعى سمنر عرف بقوة الجنان وذلاقة اللسان وتوقد القريحة ، وهو ممن يكرهون أشد الكراهية نظام العبيد، حمل فى جرأة وقوة على قرار نبرسكا، وأهاب بالناس أن يتمسكوا باتفاق مسورى. ولقد كانت لهجته لاذعة وحجه قاطعة وعباراته مقذعة ؛ فلما كان ذات يوم بعدها جالساً إلى مكتبه فى المجلس يكتب فى سكون هجم عليه عضو من أهل الجنوب فضربه على أم رأسه بعصا غليظة فسقط على الأرض مغشياً عليه ، فكانت الضربة فى الواقع أولى ضربات الحرب الأهلية ، فأهل الجنوب بدل أن يستنكروا هذه الفعلة هللوا لها واعتبروا صاحبها بطلا جديراً بالتوقير . وقدم له جماعة من الطلبة عصا ذات رأس من الذهب ! أما أهل الشمال فلك أن تتصور مقدار ما بلغته النملة من نفوسهم وما تركته من الغيظ فى صدورهم فذلك مالا ينهض لتصويره كلام

وحدث بعد ذلك حادث آخرج البلاد من أركانها ، وذلك أن أحد العبيد ، رحل مع سيده إلى ولاية من الولايات الشمالية الغربية ، وكانت أسرة ذلك العبد مسه، وكان عبداً ذكياً له حظ من من التعليم أدرك أنه وراء الحد الفاصل بين ولايات العبيد والولايات الحرة ، فرفع أمره إلى القضاء يطلب أن يتمتع هو وأسرته بالحرية ما دامو فى ولاية حرة ؛ وانتقلت القضية من محكمة إلى محكمة حتى استقرت فى المحكمة العليا فى وشنجطون ؛ وأصدر القاضى الأعلى حكمه ، فقضى بأنه ما كان لأى عبد زنجى أن يرفع قضية أمام محكمة من محاكم البلاد كما يفعل الرجل الأبيض ، وأنه ليس للمؤتمر ولا لأى مجلس من مجالس الولايات أى سلطة تخوله أن يمنع أى شخص أن يعود بعبيده من الولايات الحرة إلى ولايات العبيد . . .

ولقد هز هذا الحكم البلاد هزا عنيفاً ؛ واستقبله أهل الجنوب طربين يطفرون من الفرح ، أما أهل الشمال فكان فى نفوسهم غمة وفى حلوقهم شجى ؛ ذلك أنهم رأوه يجعل اتفاق مسورى اتفاقا غير دستورى ، كما رأوه يقضى على قرار نبراسكا الذى يجعل لمجلس الولاية الحق فى تقرير ما يريده فى مسألة العبيد ؛ وبه أصبح العبد كقطعة من الأدوات ليس له حتى فى نفسه أى حق أو شبه حق

وكان خطر هذا الحكم أنه صادر فى تلك المسألة التى تشغل الأذهان من المحكمة العليا للبلاد ، وأن صدوره جاء فى تلك الآونة التى كان الخلاف فيها على أشده بين الناس ؛ وسرعان ما انتشر بين الطبقات صغيرها وكبيرها ، وانشغل به الساسة عن كل أمر سواه فلا حديث لهم أينما تلاقوا إلا ما يحمل من المعانى ؛ أدرك الجميع أن قد أزفت الآزفة واقترب اليوم الذى يحتكم فيه الفريقان إلى السيف ؛ وأيقن لنكولن أن الحوادث تؤيد ما ارتأى ولعله كان يحس بينه وبين نفسه أن قد اقتربت الساعة التى يتناول فيها معولا لا ليقطع به الأخشاب كما كان يفعل من قبل بل ليهوى به على ذلك النظام البغيض فيضربه الضربة الحاسمة . . .

« يتبع » الخفيف

اطلبوا مؤلفات

محمود تيمـــور

وهى : الحاج شلبى . الاطلال . أبو على عامل أرتست . الشيخ عفاالله . الوثبة الأولى . قلب غانية . نشو القصة وتطورها

من جميع مكاتب القطر المهمة

كتاب « فرعون الصغير وقصص أخرى »

يظهر فى نهاية العام